تاريخ الفرق والجماعات في الإسلام

دراسة وتحليل

د. غادة لطفي محمد حسان

الكتاب: تاريخ الفرق والجماعات فى الإسلام
الكاتبة: د. غادة لطفي محمد حسان

تصميم الغلاف: محمد الحلواني

تنسيق داخلي: هبة خليل

مراجعة لغوية: د. شادي محمد شادي

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٨٢٢

الترقيم الدولي: ٤-٢-٦٧٨٣-٩٧٧-٩٧٨

الناشر: السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام: لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول ٣٦ - ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

٠١٥٥٠٠٩٦٢١٥ – ٠٢٢٢٠١٧٢٦٠

elsaidpublisher@gmail.com
جميع الحقوق محفوظة للناشر

الإهْدَاءُ

إلَى مَن غَابُوا عَنِّي وأَنَا فِي تِلْكَ الغُرْبَةِ الطَّويلة.

إلَى مَن كَانُوا جُزْءًا مِنِّي عَلَى تِلْكَ الأَرْضِ الْجَمِيْلَة.

إلَى أَبِي إلَى أُمِّي اللّذين أوْدَعتُهم تُرابَ وطنِي الحبيبِ مِصْــر.

إلَى مَن عَلّموني وغَرَسُوا فِي دَاخِلِي مَعنَى الإيْمَانِ والصّبر.

إنّهم مَن زَرَعُوا فِي دَاخِلِي مَعْنَى التّوَسطِ والاعْتِدَال.

إنّهم مَن أوصوني أنْ أتمسك بإسلامي في الحِل والترحال.

إنّهم أصحَابُ الكلماتِ الغاليةِ التي لمْ تزلْ فِي أُذُنِي.

إنّهم أصحابُ الأصالةِ الباقيةِ التي ترتقِي بخُلقِي.

إلَى نصفِي الآخر الذي تعلّمتُ عَلَى يدِه الكثير.

إلى البحرِ الزاخرِ وذي العلمِ الغزير.

إلَى زَوْجِي الذي يقتسمُ مَعِي الحياة.

إنّه مَن أرشدَنِي إلَى طلبِ العلمِ والسيرِ فِي مسعَاه.

إلَى بناتي زهراتِ حياتِي وثمارِي اليانِعَة.

عِزِي وفخرِي فِي تِلْكَ البلادِ الواسعة.

أهدِي إليكمْ جميعًا باكورةَ مؤلفاتِي الإسلامية.

وأرجُو مِن اللهِ أنْ ينفعَ بهَا أمتَنَا الغَالِية.

فيعلمُ اللهُ أنّي مَا قصدْتُ بِهِ إلَّا الثواب.

وأنْ يكونَ نُورًا لذوِي الأفهامِ والألباب.

الولايات المتحدة الأمريكية – ولاية كاليفورنيا

الاثنين ٢٥ نوفمبر ٢٠١٩م

٢٧ ربيع الأول ١٤٤١ هـ

المقدمة

الحمد لله الذي قال في كتابه العزيز: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " [1] ،وهو القائل أيضا:

"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا " [2] ، فمما لا شك فيه أننا في هذا العصر قد شَغلتْ أذنَنا وأفهامَنا بعضُ المستحدثات، التي وإن وُجدت من قبل على مرّ القرون الماضية، لكنها في هذا العصر قد أخذتْ منحىً جد خطير، وما ذلك إلا لاتساع ما يُعرف بعصر العولمة بما فيه من إطلاق ما يعرف بحرية التعبير، أو بمعنىً آخر حرية التفكير، فترتب على ذلك ظهورُ بعض الفرق والجماعات التي أحدثتْ جدلاً واسعاً في المجتمع الإسلامي على اختلاف طبقاته، ومع إقرارنا أنّ لهذه الجماعات والفرق أصول تطرف يضرب بجذوره إلى زمنٍ بعيدٍ، ولكننا لم نتوقع أنْ يظهر على سطح الأحداث بتلك الصورة الملفتة.

ومن المحزن أن الكثير من شبابنا المسلم الآن لا يعرف شيئا، أو لِنقُل: إنه لا يملك المعرفة اللازمة التي تمكنه من التصدي والرد علي تلك الفرق والجماعات ، والتي بلا شك قد أحدثتْ أمرًا مبتدعًا، ليس له أصلٌ أو قدمٌ ثابتة في الكتاب والسُّنة.

ولا شك أنّ بعض تلك الفرق والجماعات تمثل خطرًا على الأمة خاصة في السنوات الأخيرة، حين أصبحت أداةً بأيدي أعداء الإسلام، يقومون بتوظيفهم لأهداف سياسية واقتصادية، فكان الخاسر الوحيد هو الإسلام والمسلمين، ولعل ذلك مرجعه إلى ضعف الآلة الإعلامية المتمثلة في الوسائل المرئية أو المكتوبة، حيث تفوق الغرب بما يمتلكه من وسائل تكنولوجية حديثة وإعلام استطاع أنْ يسيطر على عقول بعض الشباب المسلم،

---

[1]- سورة آل عمران آية (١١٠) .
[2]- سورة آل عمران آية (١٠٣) .

في أن يعطي انطباعا خاطئاً عن الإسلام وأتباعه، ويظهرهم بصورة المتناحرين الذين يحاربون بعضهم بعضاً بدافعٍ عقائدي، وهذا بالطبع غير صحيح.

ولذا يجب على الشباب المسلم أنْ يمتلك البصيرة ونور العقل في استبيان تطرف وشذوذ بعض المنتسبين إلى الإسلام، حتى وإن كانوا ينطلقون من مرجعية أساسها الكتاب والسنة؛ لأنهم ببساطة يفسرونها بحسب أهوائهم وما يخدم مصالحهم الشخصية، وليس أدل على ذلك مما رأيناه في بعض البلاد الإسلامية من صراعٍ دامٍ بين تلك الفرق والجماعات، بالرغم من أنهم جميعاً يرفعون شعار الإسلام، والإسلام منهم براء.

ولذلك رأيت أن أفصل القول عن تلك الفرق والجماعات وأصولها التاريخية التي تضرب بجذور بعيدة، بُعَيْد عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وأما عن خطتي في هذا الكتاب فهي تتكون مما يلي:

تمهيد: وقد أوجزتُ فيه معنى الفرقة والجماعة، والإرهاصات الأولى لبداية الخلاف بين المسلمين.

ثم الفصل الأول: بعنوان: الفرق الإسلامية، وقد تحدثتُ فيه بإيجاز عن نشأة تلك الفرق وعقائدها، وأبرز المنتمين لها.

ثم الفصل الثاني: بعنوان: الجماعات الإسلامية، وقد تناولتُ فيه أبرز الجماعات، وطرقها، ومبادئها.

ثم الخاتمة: التي سردتُ فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها.

ثم فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

وأشير هنا إلى ملاحظة مهمة ألفت نظر القارئ إليها، وهي أنه قد يعتقد أن ما أوردته عن الفرق والجماعات هو موجود بالفعل في شتى المصادر والمراجع، وأنه ليس هناك جديد في هذا الكتاب، وهذا أمر مردود عليه، حيث إنه من الصحيح أن هذه الفرق والجماعات قد أُلفت فيها العديد من المؤلفات، لكن الجديد هنا هو أنني قد جمعتُ جل الفرق والجماعات في مؤلف واحد، بالإضافة إلى طرح وجهة نظري الخاصة من خلال معايشتي لهم على أرض الواقع، خاصة أنهم يمارسون عقائدهم ومبادئهم بحرية مطلقة بالولايات المتحدة الأمريكية التي أعيش فيها، وليس من قرأ وسمع كمن عايش وتفاعل مع هذه الفرق والجماعات، فأرجو من الله تعالى أن يلهمني الصواب فيما أكتب، وأن يجنبني الميل والهوى إلا لما هو حق.

" رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي "

تمهيد

قبل الخوض في الحديث عن الفرق والجماعات لا بد من الإشارة هنا إلى بعض الأشياء التي أراها ضرورة حتى تُرسخ فكرة هذا الكتاب، حيث يجب التأكيد هنا على أنّ مفهوم الفرقة يكمن في أنه عبارة عن حزب قائم على بدعة، ثم على أساس هذه البدعة تنقسم الفرق:

١- فلو كانت البدعة مكفرة: تخرج هذه الفرقة عن دائرة الإسلام، كالقاديانية، والنصيرية، والدروز، والبابية، والبهائية، والفرق الباطنية، وغلاة التصوف، فهذه فرق خارجة عن الإسلام، وأحيانا تسمى فرق منتسبة إلى الإسلام.

٢- أما لو كانت البدعة غير مكفرة: كالأشاعرة، والزيدية، والخوارج، والمرجئة، والماتريدية، فنقول: هذه فرق داخلة في الإسلام، وتسمى أحيانا فرق إسلامية.

وأما عن الحزب أو الجماعة فهي قائمة على مبادئ، ويكون الحكم عليها بالنظر الى تلك المبادئ:

- أن تكون على الإسلام كله فهذا تحزب محمود واجب.
- أن تكون على جزء من الإسلام فهذا تحزب مذموم.
- أن تكون على مباح كالوطنية والقومية، فهذه إن جعلها تابعة للدين دون تحزب عليها فلا شيء فيها، وإذا تحزب عليها وجُعل الدين تابعاً لها فهذه حزبية محرمة بلا شك.
- أن تكون على بدعة، فهنا يتحول الحزب إلى فرقة من الفرق الضالة.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أهمية دراسة الفرق والجماعات والأحزاب التي عُرفت على مدى التاريخ الإسلامي منذ بداية الدعوة حتى عصرنا الحاضر، وتتمثل هذه الأهمية فيما يلي:

- تذكير المسلمين بما كان عليه أسلافُهم من العزة والكرامة حينما كانوا يدًا واحدة.
- لفت أنظارهم إلى الحال الذي يعيشونه بسبب تفرقهم.
- توجيه الأمة الإسلامية إلى الوحدة فيما بينهم.
- تبصير المسلمين بأسباب الخلافات التي مزقتهم؛ ليجتنبوها بعزم قوي.
- معرفة ما يطرأ على العقيدة الإسلامية الصحيحة من أفكار وآراء هدّامة.
- رصد تلك الحركات والأفكار التي يقوم بها أولئك الخارجون عن الصراط المستقيم.

كل هذا حتى تبقى الفرقة الناجية علماً يُهتدى به، بعيدة عن تلك الشوائب الطارئة على العقيدة، وربط حاضر الأمة بماضيها.

وقد يسأل سائل: لماذا نشغل أنفسنَا بدراسةِ فرقٍ قد انتهت، وربما لمْ يعد لها ذكرٌ؟ والرد على ذلك: بأنه وإنْ كانت هذه الفرق لمْ يعد لها وجودٌ، إلا أنّ أفكارَها لمْ تزل مرتكزاً يرتكز عليه بعض الجماعات، سواء في آرائهم أو معتقداتهم، أو سلوكياتهم التي نراها في العصر الحاضر.

النهي عن التفرق في الكتاب والسنة:

لا شك أنّ مِن أهم المبادئ التي قامت عليها الدعوة الإسلامية هو مبدأ الاتحاد والاعتصام بحبل الله، ونستطيع أنْ نلمس ذلك مِن خلال ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبينا المصطفى - صلّى الله عليه وسلم – حيثُ إنّ المتأملَ في آيات الذكر الحكيم يستطيع الوقوف على الكثير مِن الآيات التي تحرض على ذلك كقوله تعالى:

" وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [1] ، وقوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا " [2] .

فكما هو واضح من هذه الآيات، أنها قد حملت دعوة صريحة إلى دعوة المسلمين جميعًا إلى الاتحاد، مشيرة إلى أنّ في ذلك قوة وعزة، كما نجد نهيًا صريحًا عن التفرق، لأنّ في ذلك ضعفًا ومهانةً قد يؤدي بصاحبه إلى خسران الدنيا والآخرة.

أما عن سنة نبينا الكريم- عليه أفضل الصلاة والسلام - فإننا نجد كثيرًا مِن الأحاديث التي حملت نفس الدعوة، من ذلك:

أ- ما رواه عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: خط لنا رسول - الله صلى الله عليه وسلم - يومًا خطًّا، ثم قال: "هذه سبيل الله"، ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، ثم قال: "هذه سُبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ هذه الآية: " وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ " [3]، [4].

ب - كذلك روى لنا معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال: قام فينا رسول الله - صلى الله عليه و سلم - فقال: " إن أهلَ الكِتابينِ افترقوا في دينِهم على ثِنْتَيْنِ وسبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه الأمةَ سَتَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّةً، يعني الأهواءَ، كُلُّها في النارِ إلا واحدةً، وهي الجماعة " [5].

---

[1]- سورة الأنعام آية (١٥٣) .
[2]- سورة آل عمران أية (١٠٣) .
[3]- سورة الأنعام (١٥٣) .
[4]- رواه الترمذي (٢٤٥٤) ، وابن ماجه (٣٤٢٨)، تخريج مشكاة المصابيح (١٣١/١)، كما أشار إلى ذلك في المقدمة .
[5]- شرح الطحاوية رقم (٥١٣) ، صححه الألباني .

حصر الفرق في العدد المذكور في حديث الافتراق:

كان من اللازم أن تكون لنا وقفة مع الحديث الذي قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، وقبله افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي، وفي رواية: قيل فمن الناجية؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي".

فهذا الحديث قد حمل في طياته أمرين هامين: الأول الإشارة إلى الفرقة الناجية ، والآخر في معنى قوله صلى الله عليه و سلم :" كلها في النار إلا واحدة"

أما عن الفرقة الناجية :

١- فقيل: إنها هي السواد الأعظم من أهل الإسلام.
٢- وقيل: هم العلماء المجتهدون الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه و سلم : "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة "
٣- وقيل: إنها خصوص أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه و سلم :" ما أنا عليه اليوم وأصحابي"
٤- وقيل: إن الجماعة هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.
٥- وقيل: إنها جماعة غير معروف عددهم ولا تحديد بلدانهم، أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بإخبار الله تعالى له أنهم على الحق، وهو الراجح.

أما الأمر الآخر المختص بقوله صلى الله عليه و سلم :" كلها في النار إلا واحدة"

فقد ذكر الشاطبي ما حاصِله:

١- أن هذه الفرق لابد أن ينفذ فيها الوعيد لا محالة.

٢- أنهم مثل أهل الكبائر تحت المشيئة [١]

٣- أن الأولى عدم التعرض لتعيين الفرق غير الناجية بالحكم عليها بالنار.

والذي يظهر لي أن الفرق تختلف في بعدها وقربها من الحق، فبعضها يصح أن يطلق على أصحابها أنهم أهل بدعة، وبعضها لا يصح [٢].

منهج العلماء في عد الفرق:

لم يكن للعلماء المختصين بالفرق والجماعات منهجٌ أو قانونٌ بنوا عليه عدهم للفرق الإسلامية، وقد أشار إلى ذلك الشهرستاني- رحمه الله حين قال - :

" اعلم أن لأصحاب المقالات طرقاً في تعديد الفرق الإسلامية، لا على قانون مستند إلى أصل و نص"، وهذا كلام صحيح يؤيده ما نجده عند تعدد العلماء للفرق كالأشاعرة حيث إنهم يعدون أمهات الفرق عشرة أصناف، وبينما عد الشهرستاني أربع فرق، وعد غيرهم ثماني فرق وهكذا، مما يؤكد عدم وجود قانون لعدّ الفرق مستقلة أو تابعة لغيرها[٣] .

---

[١]- الاعتصام ج (٢) ، ص (٢٤٧- ٢٤٨) .

[٢]- ذكره الشاطبي في الموافقات ، انظر أهم الفرق ص (١٢) .

[٣]- الملل والنحل (١ / ١٤) .

إرهاصات الفرقة بين المسلمين حتى ظهور الفرق:

لابد هنا ونحن نسطر هذا الكتاب عن الفرق والجماعات أن نشير إلى بعض الأمور التي لعبت دوراً كبيراً في ظهور الفرق والجماعات؛ حتى نقف على قدم ثابتة، يستطيع من خلالها القارئ أن يُمعن النظر في الأسباب الحقيقية التي كانت لها أثرٌ واضحٌ في رسوخ هذا الاختلاف، وهذا التفرق الذي رأيناه بعد ذلك، فقد يخطئ من يعتقد أن زمن علي ومعاوية - رضي الله عنهما - هو ذاك الزمن الذي نشأت فيه دواعي الفرقة والاختلاف بما ترتب علي ذلك من ظهور الفرق والجماعات، لكن المتأمل في التاريخ الإسلامي يجد أن التفرق والاختلاف يضرب بجذور بعيدة تصل إلى عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وهنا يجب علينا أن نطرح سؤالا: هل كان المسلمون أيّام النبي الأكرم - صلَّى الله عليه وسلَّم - محتفظين بوحدة كلمتهم، ومستسلمين لأمر نبيّهم جميعاً كما أمر اللّه به سبحانه، أم كان هناك بعض الاختلاف بينهم في جملة من المسائل؟

فأقول: إنه مما لا شك فيه أنّ المسلم الحقيقي هو من يستسلم لأوامر اللّه ورسوله، ولا يخالفه قيد شعرة آخذاً بقوله سبحانه: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللّهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم" [1].

وقد فسّر المفسرون قوله سبحانه: " لا تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَي اللّه وَرَسُوله " بقولهم: أي لا تتقدموا على اللّه ورسوله في كلّ ما يأمر وينهى، ويؤيده قوله سبحانه وتعالى في نفس السورة: " وَاعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُول اللّهِ لَو يُطِيعُكُمْ في كَثير مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتّم" [2]،

---

[1]- سورة الحجرات آية (١) .
[2]- سورة الحجرات آية (٧) .

وقال عزّ من قائل : " فَلا وَرَبّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحكّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرجاً مِمّا قَضَيْت وَيُسَلّمُوا تَسْليماً "[1].

ومع ذلك كلّه فقد نشبت بين الصحابة والنبي الأعظم عليه الصلاة والسلام، خلافات بين حين وآخر، قد ذكرها التاريخ وأصحاب السير، غير أنّ الشهرستاني يصر على أنّ أكثر الخلافات كان من جانب المنافقين، وقال: " إنّ شبهات أُمّته في آخر زمانه، ناشئة من شبهات خصماء أوّل زمانه من الكفّار والملحدين ، وأكثرها من المنافقين، وإن خفي علينا ذلك في الأُمم السالفة لتمادي الزمان، فلم يخف في هذه الأُمّة أنّ شبهاتها نشأت كلّها من شبهات منافقي زمن النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مُصرح للفكر فيه، وسألوا عمّا مُنعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل في ما لا يجوز الجدال فيه".

ثمّ ذكر الشهرستاني – رحمه الله - حديث ذي الخويصرة التميمي في تقسيم الغنائم إذ قال: اعدل يا محمد، فإنّك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: "إن لم أعدل فمن يعدل"[2] .

إنّ ما ذكره الشهرستاني – رحمه الله - صحيح لا غُبار عليه بين أنّ الاعتراض والخلاف لم يكن منحصراً بالكفار والمنافقين بل كان هناك رجال من المهاجرين والأنصار يعترضون على النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأُمور التي لا تروق لهم، وكأنّ الشهرستاني نسى قصة الحديبية حيث آثر رسول اللّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به عملاً بما أوصى اللّه إليه، وكانت المصلحة في الواقع وفي نفس الأمر توجبه لكنّها خفيت على أصحابه، فطفق بعضهم ينكره، والآخر يعارضه علانية بكلّ ما لديه من قوة.

---

[1]- سورة النساء آية (٦٥) .
[2]- الملل والنحل (١ /٢١) .

فهذا الفاروق عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - بعدما تقرر الصلح بين الفريقين على الشروط الخاصة، وقد أدركته الحمية معارضاً لهذه الاتفاقية، وقال لرسول الله: ألست برسول الله؟ قال: «بلى» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى» قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال : «إني رسول الله ولست أعصيه " [1].

وكأنّ الشهرستاني غفل أيضاً عن الجدال الشديد بين النبي– صلى الله عليه وسلم - وبعض أصحابه في متعة الحج، قال الإمام القرطبي: لا خلاف بين العلماء أنّ التمتع المراد بقوله تعالى: "فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَة إِلَى الحَجّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدي" [2]، هو الاعتمار في أشهر الحجّ قبل الحجّ، قلت: وهو فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً من كلّ جانب على الأصح، وإنّما أضيف الحجّ بهذه الكيفية إلى التمتع أو قيل عنه: التمتع بالحج، لما فيه من المتعة، أي اللذة بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخلّلة بين الإحرامين، وهذا ما كرهه عمر وبعض أتباعه، فقال قائلهم: أننطلق وذكورنا تقطر؟! [3].

---

[1]- السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٧) .
[2]- سورة البقرة آية (١٩٦).
[3]- سنن أبي داوود ج (٢١٣/٢) ، صحيح مسلم ج (٤ /٤٦) .

وفي (مجمع البيان) أنّ رجلاً قال: أنخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟ وأنّ النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم - قال له : " إنّك لن تؤمن بها أبداً " [١].

ولأجل هذه المكافحة التي نجمت في حياة النبي خطب عمر بن الخطاب في خلافته، وقال: متعتان كانتا على عهد رسول اللّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما. [٢]

وهذه الأُمور تسهل لنا التصديق بما رواه البخاري في إسناده عن عبيد اللّه بن عبد اللّه عن ابن عباس، قال:" لما اشتد بالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم – وجعه، قال: إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، قال عمر: إنّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللّه حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال:

" قوموا عنّي، ولا ينبغي عندي التنازع "، فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول اللّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - وبين كتابه" [٣].

كما تسهل لنا التصديق بخلافهم في حال حياته، عندما أمرهم بقوله: " جهزوا جيش أُسامة لعن اللّه من تخلّف عنه "، فقال قوم: يجب علينا امتثالاً لأمره، وأُسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتد مرض النبي – صلى الله عليه وسلم - فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره [٤].

---

[١]- النص والاجتهاد (١٢٠) وقد نقل مصادر كلامه .
[٢]- مفاتيح الغيب للرازي : ٢٠١/٣ في تفسير آية ٢٤من سورة النساء، شرح التجريد للفاضل القوشجي : ٤٨٤.
[٣]- صحيح البخاري رقم (٣٠/١) .
[٤]- الملل والنحل (١ / ٢٣ – ٢٤) .

فقد كانت هناك خلافات في أُمور لا تروق لنفوس بعض الصحابة وميولهم، غير أنّ هذه الخلافات لم تصل إلى الحدّ الذي تنشق به عصا الوحدة، وتنفصم بها عرى الأخوة.

وأعظم خلاف بين الأُمّة هو الخلاف الذي نشب بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وهو الخلاف في الإمامة، وقد لمست الأُمة ضرره وخسارته، ويعود أساس هذا الخلاف إلى انقسام الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى فرقتين:

الأُولى : القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب إلهي، وأنّ الإمام يقوم بالمهام التي كانت قد أُلقيت على عاتق النبي صلى الله عليه وسلم من تبيين الأحكام الشرعية، وتفسير كتاب اللّه، وصيانة الدين عن النقص والزيادة، والإجابة على الأسئلة الواردة والاعتراضات المتوجهة إلى الدين، يضاف إلى ذلك إدارة المجتمع البشري وسياسته التي يعبر عنها بالحكومة الإسلامية.

الثانية : القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب عادي يجب أن يقوم به واحد من آحاد الأُمّة، لتبرير أمر المجتمع سياسياً واجتماعاً واقتصاداً وغير ذلك، وأنّه لم يرد في أمر الخلافة نص على شخص ما، وهؤلاء هم أهل السنّة.

ولست هنا في معرض السرد لجلّ الاختلافات التي حدثت بعد وفاة النبي - صلي الله عليه وسلم - لكن ما يهمني هنا أن أقف على الأسباب التي أدت في النهاية إلى نشوء ما يعرف بالفرق والجماعات الإسلامية.

والحقيقة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أنه ترك لأمته ديناً مبنياً على بساطة العقيدة ووضوح الشريعة، ومن هنا عندما انطلق الفاتحون الأوّلون إلى تلك البلاد التي كانت تعرف الإسلام لأول مرة، نراهم قد حملوا الإقناع بالمنطق أولًا، وحد السيف ثانيًا،

فخضت شعوب تلك البلاد في معظمها دونما قتال أو عنف، وهذا يعود إلى كتاب الله – عز وجل - الذي هو هدىً وتبياناً لجميع الخلق.

فالمسلمون الأوّلون في ضوء بساطة العقيدة، وسهولة التشريع، وفي ظل هذه الحجج، والأدلة القويمة كانوا في غنىً عن الخوض في أقوال المدارس العقلية، والمناهج الكلامية التي كانت دارجة بين الأُمم المتحضّرة آنذاك، فهم بدلاً من الغور فيها كانوا يخوضون غمار المنايا ويرتادون ميادين الحروب في أقطار العالم وأرجاء الدنيا؛ لنشر الدين والتوحيد، ومكافحة شتى ألوان الشرك والوثنية، ومحو العدوان والظلم عن المجتمع البشري.

نعم كان هذا وصفهم وحالهم إلاّ القليل منهم ممن عرف بالانتهازية وعشق المال، وقد قلنا: إنّ بساطة التكليف كانت إحدى العوامل التي صرفت المسلمين عن التوجه والتعرض للمناهج الفلسفية الدارجة في الحضارات القائمة آنذاك ، فلأجل ذلك كانوا يكتفون مثلاً في معرفة اللّه سبحانه بقوله تعالى: " أَفِي اللّه شَكٌّ فاطرِ السَّمواتِ والأَرضِ"[1]، وقوله عزّ وجلّ : " أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْء أَمْ هُمُ الْخالِقُون " [2] .

وفي نفي الشرك والوثنية كانوا يكتفون بقوله سبحانه وتعالى : " لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّهُ لَفَسَدتا " [3].

وفي التعرّف على صفاته وأفعاله بقوله سبحانه: " هُوَ اللّهُ الَّذي لا إِلهَ إِلاّ هُوَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحيم " [4]، إلى آخر سورة الحشر.

---

[1]- سورة إبراهيم آية (١٠) .
[2]- سورة الطور آية (٣٥) .
[3]- سورة الأنبياء آية (٢٢) .
[4]- سورة الحشر آية (٢٢) .

وفي تنزيهه عن التشبيه والتجسيم بقوله سبحانه: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ الْبَصير " ([1]) ، وبقوله عز وجل : " لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار " [2]، وفي سعة قدرته : " وَما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ " [3].

إلى غير ذلك من الآيات، فلكلّ أمر من أمور العقيدة نصوص في الكتاب والسنّة، أغنتهم عن اللجوء إلى غيرهما.

نعم إنّ مفاهيم هذه الآيات على بساطتها تهدف إلى معان بعيدة الأغوار، عالية المضامين، فالكلّ يستفيد منها حسب مقدرته واستعداده، فهي هادية لكلّ البشر، ومفيدة لجميع الطبقات من ساذجها إلى مُتعلّمها إلى مُعلمها.

وهذه الميزة يختصّ بها القرآن الكريم، ويتميّز فيها عن غيره، فهو مع كونه هدىً للناس عامة، خير دليل للمفكّرين صغارهم وكبارهم ، هذا هو الكتاب.

وأمّا السنّة فهي عبارة عمّا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، نازلة منزلة التفسير والتبيين لمعاني الكتاب الحكيم، مبينة لمجمله، شارحة لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه:

" وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " [4]، أي لا لتقرأ فقط، بل لتبيّن وتشرح ما نزل بقولك وفعلك وتقريرك.

---

[1]- سورة الشورى آية (١١) .
[2]- سورة الأنعام آية (١٠٣) .
[3]- سورة الأنعام آية (٩١) .
[4]- سورة النحل آية (٤٤) .

وكان الواجب على المسلمين مع الحجج الإلهية التمسّك بالعروة الوثقى ورفض الاختلاف، ولكن للأسف تفرقوا إلى فرق وجماعات لأسباب أشير إليها فيما يلي:

١- الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية.
٢- سوء الفهم واعوجاجه في تحديد الحقائق الدينية.
٣- المنع عن كتابة حديث رسول اللّه - صلَّى الله عليه سلم – ونقله والتحدّث به كما سيجيء.
٤- فسح المجال للأحبار والرهبان للتحدّث عن قصص الأوّلين والآخرين.
٥- الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري بين المسلمين وغيرهم من الفُرس والروم والهنود.
٦- الاجتهاد في مقابل النصّ.
٧- اتخاذ الدين وسيلة من أجل الوصول إلى منصب سياسيّ أو اقتصاديّ.
٨- البطالة التي دفعت كثيراً من الشباب أن ينساقوا خلف الدعوات الفاسدة من أجل المال، فتم توظيفهم بشكل سيء في شكل جماعات، اتخذت من الدين شعاراً.

تلك هي الأسباب باختصارٍ شديدٍ، وقد أوجزتها حتى لا أنحرف عن موضوع هذا الكتاب، وهو الحديث عن الفرق والجماعات الإسلامية والتي سأفصل فيها القول في الفصول التالية.